الفصل الرابع

مشكلة المدلولات والقيادات فى الحركة الإسلامية

د. محمود أبو السعود(*)

(*) د. محمود أبو السعود: رحمه الله تعالى.

* انضم لجماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٣٢، وزامله فى ذلك السادة أحمد السكرى، وعبد الرحمن البنا شقيق مؤسس الجماعة حسن البنا. وكان أبو السعود أحد رؤساء «الجوالة الرابعة» وهى مجموعة من الجوالة الشباب. ولقد دعا البنا رحمه الله شخصيًا محمود أبو السعود للانضمام للإخوان، وكان البنا على صلة بوالد الأخير الشيخ محمد أبو السعود كما هو مذكور فى مذكرات البنا «الدعوة والداعية» وقد آلت الجوالة الرابعة إلى الجماعة وأصبحت فيما بعد جوالة الإخوان المسلمين. منذ كان مكتب الإرشاد ومنذ أن كانت الهيئة التأسيسية ود. محمود أبو السعود عضو بهما، كان البنا رحمه الله يستشير أبو السعود ويكلفه بالكثير من المهام: كان فى الجوالة والكتائب وفى تحرير المجلة والصحيفة، وكان سفيره فى بعض الاتصالات السياسية وكان أجرأ الإخوان عليه ومن أطوعهم إلى أمره. وبعد أن استشهد حسن البنا أرسل أبو السعود كتابا يبايع فيه حسن الهضيبى رحمه الله، إذ كان الأول فى باكستان يعمل مستشارًا لبنك الدولة وللحكومة الباكستانية الناشئة. لقد خص الهضيبى أبو السعود برعايته الدائمة واستشاره فى جل أمره، وقد توفى د. أبوالسعود (١٩٩٤م) ودفن بلندن ـ رحمه الله تعالى.

(١) نعنى بالقانون الوجودى ذاك القانون الذى يحكم الكائنات فى كل أحوالها، والذى هو موجود فيها بحكم وجودها. وقد يسميه البعض «القانون الطبيعى» وعندنا أن ليس للطبيعة قانون، بل الطبيعة هى مجموع الكائنات، فهى تخضع للقانون: لا توجده ولا يكون صفة له.

obeikandl.com

obeikandl.com

• مدلول الحركة

يجد المتمعن فى القانون الوجودى[1] للحركة ـ أية حركة لأى شىء ـ أنه لا بد لها من واقع أو محرك.

ولا بد لكل حركة من سمت أو اتجاه.

ولا مناص من وجود مقاومة لهذه الحركة متى ابتدأت، وبالتالى فإن سرعة حركة أية كتلة تتوقف على حجم هذه الكتلة، وعلى مقدار القوة الدافعة لها، وعلى مدى المقاومة التى تلاقيها.

يسرى هذا القانون الوجودى على الحركات الحسية والحركات المعنوية بوجه عام، وإن كان هناك بعض الاختلاف، فلكل حركة إسلامية دافع أو حافز تنعدم الحركة بدونه، ولا بد لها من اتجاه يأخذ سمته من زاوية الدفع له، متأثرًا بما يتعرض له من تيارات تغير من اتجاهه، وما أن تبدأ الحركة حتى تتولد المقاومة من البيئة المحيطة بها، وتتوقف سرعة تلك الحركة على قوتها الدافعة، وقدراتها الذاتية وعلى المقاومة التى تتعرض لها.

ولئن خضعت الحركة الحسية خضوعًا دقيقًا لحساب العقل البشرى بحيث يستطيع حساب كل عامل من العوامل المؤثرة فى أية كتلة متحركة، إلا أن هذا العقل ليعجز عن إدراك مصير الحركات المعنوية إدراكًا قطعيًا، وذلك راجع بطبيعة الحال إلى أن الجمادات تخضع إلى قوانين تأتيه دون وعى منها ولا إرادة، كما يتحكم الإنسان فى العوامل المؤثرة فى حركتها، ويدخل على قانونها ما يشاء من المتغيرات التى تعتريها. أما الإنسان فهو صاحب وعى وإرادة وتصور عقلى،

وهذه الخصوصيات تمكنه من إيجاد البدائل فى السلوك والتصرف، و لذلك كان من المستحيل على الإنسان أن يتنبأ بما سيحدث منه أو يحدث له فى غده، دع عنك ما قد يحدث لغيره من الأحزاب أو الجماعات فى مساراتها أو تحركاتها.

من أجل ذلك كانت «النظرة المستقبلية» لأية حركة فى مجتمع إنسانى معين لا تغدو أن تكون ضربًا من الحدس، وكل ما يمكن أن يقال فى هذا المجال هو بأوله استقراء الأحداث، والنظر فى التاريخ بغية العثور على سبب يقاس عليه، ومعرفة الاتجاه العام لحركة هذا المجتمع مع أخذ ما فيه من عناصر للمقاومة بعين الاعتبار، وتحليل الحركة إلى عناصرها الأولية لمحاولة التكهن مما سيكون عليه الاتجاه العام للحركة وما قد تنتهى إليه.

الحركات الإسلامية

المقصود بالحركة الإسلامية عمومًا ـ وفى أى قطر كان ـ هو أنها تجمع أفراد مسلمين، فى هيئة لها نظام خاص بها، يؤمنون فى أعماق قلوبهم بالإسلام وشعائره ونظمه وقوانينه، ويعملون فى حدود فهمهم وطاقاتهم على تطبيق تعاليم الإسلام فى حياتهم اليومية، وبعبارة أخرى: الحركة الإسلامية هى مسيرة لجماعة من المسلمين، مثلهم الأعلى شرعة الإسلام، وهو القوة الدافعة للحركة أو الحافز لها، وسمتهم الغاية من هذا المثل: وهى تحقيق أكبر نمط من الأمن الروحى والمادى للبشر، يستمدون نظمهم الحياتية من مثلهم الأعلى أو شرعتهم، ويحققون هذه النظم عن طريق «هياكل» ينشئونها حسب حاجاتهم وتطوراتهم البيئية.

ولئن خال للباحث أنه ما دامت شرعة الإسلام هى ما نزل به القرآن الكريم وما أوحى إلى محمد عليه السلام من سنة[1]، فلا مجال لاختلاف تصور المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها على مدلول الشرعة ومضمون المثل الإسلامى

(١) مقتضى هذا أن ما قاله المصطفى ﷺ أو فعله أو أقره من غير وحى أتاه فى ذلك، لا يكون سنة ملزمة.

الأعلى. على أن الواقع غير ذلك، إذ يختلف الناس فى العصر الحاضر ـ كما اختلفوا فى القدم ـ على معانى القرآن الكريم ومدلولات الأحاديث الصحيحة اختلافًا كبيرًا، بعضه نتيجة جهل، فهو إلى الانحراف أقرب، وبعضه نتيجة صعوبة تفسير الكتاب المعجز، وبعضه نتيجة الخلط بين ما هو مستديم بحكم طبيعته ومتجدد بحكم وصفه وهذا الاختلاف أمر طبيعى فى البشر نظرًا لتفاوت فهمهم واستعداداتهم الفطرية من أجل هذا نجد الحركات الإسلامية المعاصرة تضم أعدادًا كبيرة من الجمعيات والفرق الدينية المختلفة فى غاياتها ووسائلها، ويمكن إجمالها فيما يلى:

(أ) الجماعات الروحية

وهى التى اقتصر فهمها ونشاطها على الناحية الروحية فى الإنسان، فهى توليها كل همها، مهملة أمور الدنيا وما فيها من قضايا سياسية واجتماعية واقتصادية، بل إن من بين هذه الفئة من يرى الخير فى البعد عن السياسة والحكم والحكام، ولا يكاد يخطر بباله ما يتطلبه الإسلام من ضرورة إقامة حكم عادل، ومن توفير وتأمين كرامة الإنسان ومن وجوب توفير ضرورات الحياة (أو ما يسمى فقها الحاجات الأصلية) لكل فرد. وهؤلاء هم الفرق الصوفية ومن إليهم.

والحق أن نسبة هذه الجماعات إلى «التصوف» الصحيح نسبة فيها افتئات على حقيقة التصوف فى المفهوم الإسلامى، إذ ما من مسلم حق إلا وفيه نزعة صوفية، وإن أفغر كل همه فى الأعمال الدنيوية التى هى مطية الوصول إلى نعيم الدار الآخرة.

المتصوف الحق فى دين الإسلام إنسان يتقى الله فى كل قول وعمل، إنسان جاد غير عاطل ولا يتواكل، عالم وليس بجاهل، يكسب قوته بجده وكده، ويستزيد من نعمة الله وزينته، ويتصدق بما يفيض عن حاجته؛ لأنه يؤمن أن المال مال الله وليس ماله، وليس الزاهد من زهد فيما ليس لديه، ولكن الزاهد هو من زهد فيما امتلك من نعم الله.

إن الفرق الصوفية فى عالم اليوم ـ على أحسن الفروض ـ تتميز بأمرين:

الأول: هو اهتمامها بعظمة النفس عن التطلع إلى متاع الدنيا وترويضها على الزهادة فيها، وذلك عن طريق التلقين والاستكثار من العبادة تحبيبا للنفس للآخرة، ثم رياضة النفس على الإعراض عن الحلال والحرام، ومما يعتبر من زينة الدنيا، سواء أكان ترفًا أم «كماليّا» أم لم يكن.

والمميز الثانى: أن القوم ينأون بأنفسهم عن مجتمعاتهم، لا يكادون يدرسون مشاكل الناس التى تشغل حياتهم اليومية، إذ هم فى تصورهم مأمورون بالاشتغال بالعبادة، فإن أحسنوا أداءها كافأهم الله تعالى مسئولية القيام على شئون الدنيا، إذ الله قادر على كل شىء، مدبر لكل حدث، مهيمن على كل كائن مخلوق.

فهم لا يأخذون بالأسباب، ناسين أن قوانين الله الوجودية مطردة فى أن شئون الحياة لا تتغير تلقائيّا، بل لا بد من حدث يحدثه الناس، إذ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، بل إنهم فى حلقات ذكرهم لا يتذاكرون هذه القوانين، ولا يجهدون أنفسهم فى تعلمها. وإخواننا هؤلاء ينظرون إلى الحياة الدنيا بمنظار متشائم قاتم، فإن البلاء قد عم، وساد الفساد فى البر والبحر، ولا يكادون يرون خيرًا إلا ما لابسهم من عمل يقرونه أو يفعلونه؛ لذلك غلب عليهم الفرار من هذه الحياة ومتطلباتها ومجتمعاتها، وكأنهم لم يدركوا أن أهم ما يتميز به الإسلام هو أنه جعل «الحكم» واجبًا لحراسة الدين، وأنه إذا أهملت السياسة ووسدت الإمارة إلى غير أهلها، فلن تتمكن الأمة من إقامة صحيح دينها وتطبيق شرعها.

(ب) طائفة الشعائر

من الجماعات الإسلامية من يولى المظاهر العبادية غاية عنايته، فتتركز جهودهم فى حث الأفراد على مظاهر العبادة الشعيرية من إسباغ وضوء إلى استعمال السواك إلى إرخاء اللحى وإسبال الثياب وتقصيرها.. إلى غير ذلك من القضايا الجانبية وصغائر الأمور ـ ومظاهر الشعائر. وإنك لتسمع جدالهم المستعر حول ضرورة اعتبار صوت المرأة عورة، أو ضرورة تناول الطعام بأصابع اليد

اليمنى، أو عدم السماح للمرأة أن تقرأ القرآن وهى حائض، أو غير ذلك من الأمور التى يجب ألا تكون محل جدل، إذ الغالب فيها أنها علاقة بين الفرد وخالقه، وأنها جميعًا أمور شكلية لا تنقص من إيمان المرء وحسن إسلامه، وأنها كلها قضايا خلافية لا تستحق أن تكون موضوع جدل، دع عنك أن تكون «برنامج جماعة» إسلامية تريد أن تنهض بالإسلام من كبوته فى القرن العشرين، هذه الفئة بكل أسف منتشرة بين جماهير المسلمين فى بقاع الأرض كلها، وقد تفشت فيها خرافات كثيرة موروثة من عهود التأخر فى التاريخ الإسلامى، ويسيطر عليها رجال «دين» أبعد ما يكونون عن العلم الصحيح الذى هو «معرفة الحق بدليله» على حد تعبير الإمام أبى حامد الغزالى، وإنما ساعد على انتشارها وجود أعداد كبيرة من المسلمين غير المتعلمين، ومن المؤلم حقّا أن غالبية مسلمى الأرض فى الوقت الحاضر من أجهل الشعوب وأفقرها، ويلمس الإنسان حقيقة هذه الطائفة حين يزور عشرات الملايين من سكان شبه القارة الهندية ابتداءً من باسكتان إلى بنجلاديش، وسكان جنوب شرق آسيا بما فى ذلك بلاد الملايو وإندونيسيا، وسكان الصين من أقصاها إلى أقصاها، بل إن الدارس للجماعات الإسلامية فى العالم العربى وفى إفريقيا ليجد نفس الجهل والفقر بين غالبية المسلمين، ووجه الخطورة من هذه الجماعات التى يستغلها «العلماء» أسوأ استغلال أنها تضلل عقول الناس، فلا يعلمون من حقيقة أمر دينهم إلا التافه والقليل، يحسبونه جماع هذا الدين ومنتهى غايته، وأخطر من هذا أن يغيب عن أذهانهم أن الإسلام لا يقبل لمعتنقيه الذل والاستهانة، ولا الظلم والضيم، ولا الجهل والفقر، وإذا غابت هذه المعانى الأساسية، التى هى لب الدين، عز على المصلحين أن يستثيروا فى نفوس هؤلاء العامة حمية الانتفاض لتحقيق شرعة الله واتباع منهاجه فى الحياة، وأن يجدوا منهم استجابة لما يدعون إليه من العودة إلى دين الله.

(ج) الانهزاميون

ليس من النادر أن نجد فى كثير من بلاد المسلمين بعض المثقفين وقد انتموا إلى هذه الفئة، يجدون فيها ملتمسًا للخروج من نطاق الحياة الصاخبة وما يقتضيه

الإسلام من جهاد وما يفرضه على معتنقيه من ضرورة محاربة الظلم فى كل صوره، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومنهم من يرى أن حال مسلمى القرن العشرين مطابق لحال مسلمى مكة قبل الهجرة، فيجنحون إلى ضرورة الاقتصار على دعوة الناس إلى التوحيد، وعندهم أن كل جهد يبذل فى سبيل تطوير النظام الإسلامى السياسى، أو الاقتصادى، أو الاجتماعى بحيث يتلاءم مع مقتضيات العصر ويجيب على أسئلته الكثيرة المعقدة عندهم أن كل جهد يبذل فى هذا السبيل جهد ضائع، إذ لا سبيل إلى إعادة دولة الإسلام فى نظرهم فى الوقت الحاضر إلا بعد أن يفهم الناس خاصتهم وعامتهم مضامين كلمة التوحيد، وحينئذ يمكن التغلب على «جاهلية القرن العشرين»، وحينئذ يثور الناس على النظم الغربية المادية، ويقيمون دولة الإسلام الجديدة التى تبدأ فى وضع القواعد الدستورية، والقانونية، والاقتصادية، والاجتماعية لهذه الدولة الواحدة.

واضح أن هذا منطق معكوس، فإن قبلناه على علاته، فكأنما قبلنا أن نقيم دولة غير إسلامية، القصد منها أن تتحول فيما بعد إلى دولة إسلامية، وأوضح من هذا وأمعن فى الضعف هو أن أصحاب هذه المدرسة يتغافلون عن الواقع العملى، إذ كيف ندعو الناس إلى الدولة الإسلامية دون أن نبين لهم ما هو دستورها وما قوانينها ونظمها الجمالية والسياسية والاجتماعية!!

إن هذه الفئة انهزامية فى تفكيرها، فهى لا تريد أن تتصدى لمشكلات العصر، بل هى أعجز من أن تتصور نظامًا إسلاميًا مستورثًا يقبل التعديل والتطور حسبما تقتضيه ظروف الحياة وما يستجد فيها من قضايا، وهكذا تختفى تحت ستار جاهلية القرن العشرين، تتبرأ من أخطاء الحضارات العربية المعاصرة، وتنعى على كل من أخذ بحظ هذه الحضارة، بل هى تقف موقف الناقد لكل من حاول الاستفادة من الأفكار والعلوم الغربية، وكل من أراد أن يدعو إلى دولة إسلامية يحدد سماتها ومعالمها، السياسية منها والاقتصادية، والاجتماعية، إنهم ينقدون غيرهم أبدًا، وما أسهل النقد وما أشق البناء!! ولكن ألا يكفيهم أنهم أشد الناس استمساكًا «بالتوحيد»، وألا يكفى أنهم محافظون على شعائر الدين، وأنهم يكفرون من لم يأخذ برأيهم؟؟

(د) الثائرون

والمقصود بهم أولئك الذين اتخذوا شعاراً لهم قول رسول الله - ﷺ - «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع، فبقلبه، وهذا أضعف الإيمان»، وهم لا يرون أن إيمانهم أضعف الإيمان ولا أوسطه، بل أعزه وأشده، وما فى هذه الحياة التى نعيشها اليوم قد غلب عليه المنكر، فوجب تغييره بالقوة.

وغالبية المنتمين إلى هذه الفئة من الذين يطلق عليهم جماعة «الجهاد» أو جماعة «التكفير» وهم عادة من المخلصين المتشددين، قلما يتعمقون فى فهم مقصود الدين؛ لذلك فهم من أشد المحافظين على تأدية الشعائر، ولكنهم يمتازون باعتقادهم الجازف الجارف بأن أحكام المعاملات ونظام الحكم وسند القوانين يجب أن تستمد كلها من الشريعة السمحاء، وأن أى تقصير فى هذا هو خروج على الدين يوجب على صاحبه الكفر والعياذ بالله، وهذا الكفر عندهم يبيح قتل النفس، ويعتبر هذا جهاداً فى سبيل الله.

وبالرغم أن أكثرية المنتمين إلى هذه الفئة من المثقفين ثقافة طيبة إذا قورنوا بمن أسلفنا عن الفئات، إلا أنهم أيضاً عاجزون عن إخراج تصور حضارى إسلامى جديد، يحدد للناس المعالم السياسية للدولة الإسلامية المنشودة، ويرسم لهم الخطوط الرئيسية لنظامهم الاقتصادى الأمثل، ويصف لهم قواعد الحياة الاجتماعية كما يتطلبها الإسلام ويرتضيها قانونه.

من أجل هذا نجد جماعات «الثائرين» يشتركون مع غيرهم من الجماعات فى أنهم يؤمنون إيماناً عميقاً غيبيّاً بالإسلام وتعاليمه، ويجأرون بأنه لا إصلاح لحال المسلمين إلا بتطبيق الشريعة الإسلامية. كما يشتركون مع غيرهم فى العجز عن تصور أركان وأوصاف هذه النظم الإسلامية التى ينشدونها، وأقصى ما يذهبون إليه من قول وتصور الحق أن الله قال ﴿ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وأن علينا أن نقتفى أثر السنة، وأن نقيم دولتنا على نمط الدولة الإسلامية فى عهود الخلافة الراشدة.

(هـ) الواعون

وهناك الحركات الإسلامية التى وعت أن الإسلام حى، وهو دين حياة، وأن كل حى متطور نام، وأن الجمود معناه انتقال الكائن الحى إلى اللحوق بغير الأحياء. والمقرر فى علم الحياة أن الحركة ليست دليل الحياة، إنما دليلها التكاثر والنماء والتطور.

وتشترك هذه الحركات الإسلامية الحية مع غيرها فى إيمانها الخالص بضرورة إقامة المجتمع المسلم الكامل بكل جوانبه الجمالية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، لا يطغى منها جانب على آخر، ولكنها تؤمن بأنه لا معدى عن اجتهاد جديد يخرج للناس أنماطًا جديدة تتفق مع مقتضيات العصر الذى نعيش فيه.

تنشأ هذه الحركات الواعية عادة فى محيط فئة من المثقفين، ويستجيب لها الواعون من المسلمين، وما أن تتفتح أكمام الحركة حتى «توصم» بالاشتغال بالسياسة، وتتهم بأنها هيئات إما رجعية أو تخريبية تريد الفوضى، أو قلب نظام الحكم، أو محاربة العقائد الأخرى، إلى غير ذلك من المزاعم الباطلة والتهم المزيفة.

والحق أن هذا النوع من الحركات بدأ ينتشر فى غالبية بلاد المسلمين فى أرجاء العالم كله، وإن لم يكن حتى الآن أكبر الهيئات والحركات، والكثرة الغالبة فيه من الشباب المثقف، وسنوقف معظم هذه الدراسة على دراسة هذه الفئة الواعية دراسة تستهدف استكمال ما بها من نقص، وتقوية ما بها من ضعف، إذ هى الفئة الوحيدة التى يرجى على يديها الخير للإسلام والمسلمين.

وواضح أنه بمقدار ما تنشط الحركات الواعية الحية بمقدار ما تختص الحركات بالدراسة (أى التى عفا عليها الزمن) التى رضيت لنفسها الجمود والعيش فى القبور، وقنعت بالمظهر دون الجوهر، وبعدت عن الاستزادة من العلم النافع. وإنه لمما يبعث على الأمل أن نرى هذه الحركات الحية قد قويت شوكتها وسبقت غيرها فى بعض البلاد الإسلامية كالسودان وتونس، فأثبتت أهليتها للنجاح، وأصبحت أملاً للمسلمين فى بلادها، ومثلاً يحتذى فى غير تلك البلاد.

• لمحة تاريخية

أتى محمد ﷺ بدين حضارى، فأسس دولة المدينة التى ما لبثت أن قويت شوكتها باعتناقها مبادئ الإسلام الحضارية، فانتشرت فى قرن من الزمان حتى عمت العالم المتمدن آنذاك. وبالرغم من أن المسلمين قد تخلوا عن النظام الشورى السياسى بعد الخلافة الراشدة، إلا أن تمسكهم بالإسلام فى الجوانب الحياتية الأخرى مكنهم من إرساء دعائم حضارة إسلامية باسقة امتدت على الزمن حقبة لم تنعم بطولها وعمقها وفيئها حضارة أخرى، إذ سادت الحضارة الإسلامية منذ القرن السابع الميلادى حتى القرن الرابع عشر، حين بدأت مظاهر التحلل تفشو فى المجتمعات، وحين غلبت الموالى والأعاجم على السلطة مهملة أحكام الإسلام وقواعده الأساسية، منصرفة عما يتطلب النمو الحضارى من الاستزادة من العلم والمعرفة إلى الفتح والغلبة للاستزادة من السلطة المادية، والرفاهية الحسية، ولذائذ الدنيا وشهواتها.

ثم مرت على المسلمين فترة طويلة منذ القرن الخامس عشر حتى أوائل القرن العشرين كانت لهم «خلافة» وشوكة عسكرية، إلا أن هذه القوة «العثمانية» أو التركية أهملت أيضًا الجانب الحضارى فى الإسلام، ومع أنها غزت نصف القارة الأوروبية واحتلتها، ودانت لها البلاد العربية فى الشرق الأوسط وفى الشمال الإفريقى، وانتمت إليها القبائل والشعوب المسلمة فى آسيا، إلا أنها لم تخلف للإنسانية ما تضيف به إلى الرصيد الحضارى البشرى، فكان هذا النقص فى الإمبراطورية العثمانية السبب المباشر فى تخلف المسلمين فى بقاع الأرض فى كل مجالات الحياة، وفى وقوعهم فريسة سهلة للاستعمار الغربى. سواء أكان هذا الاستعمار عسكريًا أم ثقافيًا أم فكريًا.

كان من أثر التدهور الحضارى للمسلمين طوال القرون الخمسة الأخيرة انتشار الجهل فى الأمة الإسلامية جمعاء، إذ لا نكاد نجد من المسلمين فى تلك الفترة من نبه ذكره لاختراع أو كشف علمى ذى بال، أو لفلسفة مستحدثة، أو حتى لتفوق أدبى أو أثر فنى تثرى به الحضارة الإنسانية، وما زال هذا الجهل يخيم على عامة المسلمين حتى وقتنا الراهن. أما الأفراد القلائل الذين آتاهم الله العلم فتوصلوا

إلى جديد، فهؤلاء ندرة فى الوقت الحاضر، وقلما يمكنهم العيش فى بلاد مسلمة، إذ لا يجدون فيها من يقدرهم قدرهم إن سلموا من اضطهاد الحكام وظلمهم، فتراهم ينزحون إلى الغرب حيث يحتل العلم والعلماء مكانة سامية.

هذا الجهل هو الآفة الكبرى التى تعوق التطور السليم فى العالم الإسلامى، وقد أدى إلى نتائج سيئة بالغة الأثر:

أدى إلى هذا الجمود الفكرى الذى يشل حركة الحياة، والذى يقيد الفكر الجديد ويحصره. ومن مظاهر هذا الجمود المميت تمسك «العلماء» الدينيين بالقديم وعدم اعترافهم بأى فكر مستحدث. ومن المضحك المبكى أنك إذا سألتهم عن حكمة الشرع فى معاملة مستقرة فى المجتمعات الحديثة، حاولوا صبها فى قالب معاملة عفى عليها الزمن وانقضت لأكثر من ألف عام، وذلك حتى يفتوك بالإباحة أو بالتحريم. فتمويل التجارة يجب أن يتم فى صورة «المرابحة»، والإيداعات المصرفية يجب أن تصور فى شكل «الأمانة» أو «الوديعة» حسبما تصورها الأئمة الأربعة، بل إن الشركات المعروفة فى عرفهم يجب أن تكيف بناء على ما كانت عليه الشركات القديمة كشركة الوجوه، وشركة الأعيان، والمقايضة، وما إلى ذلك.

لقد أصبح علو شأن «العالم» الدينى مرهونًا بجودة ذاكرته التى تحفظ ما كتبه الأئمة والفقهاء السابقون، فهذا الأمر حرام، أو مكروه، أو مباح، أو مندوب إليه، أو حلال لأن فقيها من السابقين قال بذلك، فإن كان الأمر مما لم يعرفه السابقون رضى الله عنهم فالسائل والمسئول فى حيرة لا يخرج منها. والمسئول من مشايخنا يعتذرون بأنهم لم يدرسوا الشئون الجارية: لم يدرسوا معنى السلطان أو التمثيل النسبى. ولم يقرءوا عن مبدأ فصل السلطات فى الجانب السياسى، وهم لم يتعلموا فى الجانب الاقتصادى، ولا علم لهم بمشاكل التجمع الصناعى وما يقتضيه خروج المرأة للكسب من قضايا تتعلق بالحياة الزوجية وتربية الأطفال ونظم الأسرة فى الجانب الاجتماعى، بل هم لم يسمعوا بما خلفته فلسفة دى كارت وكانط وهيوم وسائر بناة المدرسة الحرة التى انبنت عليها الفلسفة الحرة

(الليبرالية ـ Libreralism)، والتى تعيش الغالبية العظمى من الدول الإسلامية بمقتضاها، فكيف بالله لمثل هذا «العالم» أن يفتى فى أمور الناس المعاشية!!

لم يعد لدينا ذلك العالم الذى يدرس خواص المادة أو علم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) أو منابع الطاقة، أو تكوين الكهارب والذرات، أو مسار الأفلاك، أو الرياضيات الطبيعية، إلى غير ذلك من العلوم التى لا غنى للناس عنها فى العصر الذى نعيش فيه، والتى تفسر الظواهر الكونية موحية بفلسفة التوحيد، وعز لدينا من يعدل ابن سينا، وابن رشد، ونيوتن، وسبنسر، وهكسلى، وألكسيس كارل، وإيريك فروم، وكافكا.. وغيرهم من الذين أدت بهم دراساتهم العميقة لقوانين الطبيعة إلى الخروج على الناس بفلسفات تسمو بالإنسان إلى ما فوق المادة وتحمله إلى أبعاد علوية تقربه من الله زلفى.

ومن مظاهر هذا الجهل وآثاره المدمرة انحصار الإسلام فى نطاق الشعائر والطقوس وغياب معانيه الإنسانية والحضارية التى هى جوهره، فأصبحت الوسائل ـ وهى الشعائر العبادية ـ غايات فى ذاتها، حتى لم يعد يشغل بال المسلم ما تقتضيه عقيدته من عدالة فى الحكم، وشورى فى الرأى، وحرية فى التعبير والعمل والحركة والتصرف فى الأموال، ومساواة أمام القانون، وحقوق للأفراد قبل المجتمع، وغير ذلك مما قرره الإسلام لمعتنقيه، بل إن غالبية المسلمين يجهل هذه المبادئ الإسلامية جهلاً أدى بهم إلى الارتضاء بنقيضها من استبداد وظلم وهوان، وإلى تقبل المذاهب المادية الغريبة التى تنادى بالعلمانية والرأسمالية والاشتراكية الفاشية والديكتاتورية الحزبية والعسكرية، وما إلى ذلك من مثاليات ومذاهب فلسفية متشعبة تتعارض مع شرعة الله ومنهاجه فى الحياة، فهى تدور حول اعتبار «الفرد» محور الكون واعتبار منفعته المادية غايته القصوى الموصلة إلى سعادته، فلا محل لـ «الله» باعتباره مالك كل شىء والحاكم فى كل أمر، والعالم بكل موجود وكل طبيعة وكل قانون.

أدى هذا الجهل إلى تحلل المجتمعات المسلمة، وإذا بنا نرى الأمة الإسلامية مفرقة واهنة، إذ هى بين وصفين:

١ ـ شق يعلن رسميًا أن الإسلام دين ودولة .

٢ ـ وشق علمانى لا تقر فيه الدولة بدين .

جماعات من الأقليات تعيش فى دول غالبية سكانها من غير المسلمين ، ولئن كان لكل قسم من هذه الأقسام ظروفه الخاصة التى تحدد طبيعة التحرك الإسلامى فى موطنه ، وبالتالى تبين ما قد يئول إليه الحال فى مستقبله ، إلا أن بينها جميعا سمات مشتركة ، أهمها تلك الرغبة الصادقة المنبعثة عن إيمان عميق بوجوب العيش بمقتضى أحكام الإسلام ، وغوص أعين العقول فى تبين هذه الأحكام وكيفية تطبيقها على واقع الحال وفى ظل النظم الحضارية المعاصرة .

من أجل ذلك تجد أنه بالرغم من أن دين الدولة الرسمى المعلن فى دستورها هو الإسلام ، إلا أن حقيقة الأمر هى أن هذه الدولة لا تأخذ بالإسلام إلا فى أضيق الحدود كالأحكام المتعلقة بالأحوال الشخصية والأعياد الرسمية والشعائر والطقوس الدينية . وتبقى فلسفتها العامة ونظمها السياسية ، والاقتصادية والاجتماعية ، والجمالية قائمة على نمط النظم الوضعية سواء أكانت شرقية أم غربية .

أما الدول التى أعلنت علمانيتها كتركيا وإندونيسيا فهى لا تقيم للعقيدة الإسلامية وزنًا ، دع عنك الأحكام المنبثقة من تلك العقيدة ، وهى لا تكاد تبقى على الشعائر الإسلامية إلا اضطرارًا ومراعاة لمشاعر الأغلبية الساحقة من رعاياها الذين يغلب عليهم الجهل بحقيقة دينهم ، ولا يكادون يطالبون بحقوقهم التى فرضها الإسلام لهم وفى الحالين : فى الدول التى تقرر فى دستورها أن الإسلام دين الدولة الرسمى ، وفى الدول التى تغفل الإسلام والديانات من دساتيرها ، نجد صراعًا بين الحركات الإسلامية «الحية» الواعية ، وبين السلطات الحكومية من ناحية ، ثم بين هذه الحركات وما عداها من تجمعات «إسلامية» قاصرة فى إدراكها لحقيقة دينها .

بقيت التجمعات الإسلامية فى البلاد غير المسلمة ، وهى تختلف اختلافًا كبيرًا من بلد لآخر حسب الظروف السياسية والاقتصادية السائدة فى تلك البلاد ، ولكنها عمومًا تعانى ما تعانيه البلاد المسلمة من اختلاف فى الحركات الإسلامية ،

ففيها المتصوفة، وطلاب الشعائر، والانهزاميون، والثائرون، والواعون، وهم باختلافهم وتفرقهم وجهلهم بدينهم من أضعف الأقليات فى بلاد الغربة، ومن أهونهم شأنًا، بصرف النظر عن نسبة عددهم إلى عدد غيرهم من الأقليات.

* إن مشكلتهم لا تختلف كثيراً من حيث الموضوع عن مشاكل الحركات الإسلامية فى البلاد المسلمة:

* فلديهم إحساس قوى بضرورة التمسك بأحكام الإسلام وشعائره، وهم فى خوف دائم من أن يجرفهم تيار العقائد التى تعتنقها الأغلبية من السكان الذين يعيشون بينهم.

* ثم إن لديهم شعوراً بالاستعلاء على من عداهم من معتنقى الأديان والمذاهب الأخرى، حتى إنهم ليربئون بأنفسهم عن الاختلاط بغيرهم، وليرفضون مناظرتهم، وليمتنعون عن التعاون معهم حتى على فعل الخير.

* كذلك انعدمت لديهم القيادة الرشيدة القادرة على تقديم الحلول الإسلامية لمشكلات الحياة التى يعيشونها، فهم دائمو النقد للمجتمعات غير المسلمة التى يعيشون بين ظهرانيها، كثيرو الحديث عن نقائصها، ولكنهم لا يستطيعون تقديم بديل لها؛ وهكذا يهربون من الواقع العملى ويقعون فى تناقض يقض ضمائرهم: إنهم يذكرون دائماً ماضيهم القديم وعزهم الغابر ويحسبون أن ذلك يرفع من شأنهم، فيتمسكون بما يمكن أن يتمسكوا به من هذا القديم، وهذا لا يتعدى الشعائر والطقوس، ثم هم مجبورون على أن يعيشوا عيشة غير المسلمين أصحاب البلاد التى هاجروا إليها، ولا يكادون ـ مكابرة ـ أن يعترفوا بضعفهم وانهزامهم أمام الأفكار الغربية التى استطاعت أن تؤسس هذه الحضارة المادية القوية الشامخة.

* وأخيراً يسود المسلمين إحساس بالضياع يرفضه العقل الواعى أو الظاهر لتنافيه مع مقتضى الإيمان بالدين كأحسن هدى يفضى إلى أحسن الحلول لمشاكل البشر جميعا. وهذا التعارض بين الوعيين الباطن والظاهر من أهم أسباب الاضطراب فى حياة المسلمين جميعا.

• مشكلة القيادات

كلمة أخيرة عن الحركات الإسلامية الواعية: ذلك أن هذه الحركات سرعان ما تنجح حين يقيض الله لها قيادة حكيمة متفهمة لمتطلبات العصر، مؤمنة بأن الدين الإسلامى لا يضيق بغيره من الأولين، وأنه حى تمتد الحياة به إلى النماء والتطور المتسامى.

أما حين يرزأ الناس بقادة يتصورون الحركة الإسلامية حشداً لقوى الشباب، وتطويعاً لعقولهم لتضخع لفكرهم المحدود القاصر، وحين نفسر «البيعة» للقائد على أنها «سمع وطاعة» بإطلاق، وحين يسود شعور تقديس الزعماء أحياء وأمواتًا، وحين تقف القيادة من أهل الفكر المتحرر موقف العداء والاستنكار، حينئذ لن يكتب لهذه الحركة نجاح، بل هى تحفر قبرها بيدها، إذ يكون ضررها أكبر من نفعها، ويعظم مصاب الناس فيها.

والمشاهد فى الحركات الإسلامية أن نجاحها يتوقف إلى حد بعيد على شخصية قادتها، وهذا أمر معروف لمن له إلمام بعلم الاجتماع ومبادئه المتعلقة بالشعوب التى يغلب على أفرادها الجهل. وليس المقصود بالجهل هنا مجرد عدم القراءة والكتابة، ولكن المقصود به هو الجهل بمضامين الحركة التى تتصدى لها القيادة، فإذا لم يكن للأفراد من الثقافة ما يمكنهم من فهم أغراض الحركة ووسائلها، فإنهم يتبعون القيادة حسبما سارت وأينما توجهت، وسرعان ما يختلط «موضوع» الدعوة بشخصية القائد، وسرعان ما يفتتن القائد بما يفيض عليه من الولاء الذى قد يصل فى بعض الأحيان إلى حد القداسة، وسرعان ما ينصرف عن تعليم الأتباع ما يجب أن يعرفوه من شئون الحركة ومناهجها ووسائلها، وحينئذ تتخذ الحركة صورة من صور «العقيدة» التى تستكن فى العقل الباطن، «تتحرك» بدافع من الشعور يجاوز الفكر المنطقى، ويغفل عن الأسباب والعواقب، وحين تصل الحركة إلى هذا الطور تكون قد وصلت إلى أخطر مرحلة فى حياتها العامة، هى مرحلة المغامرة أو المقامرة، فإما أن تقوم بعمل يرفعها درجات أو ينزل بها إلى سفل الدركات. ومهما كان الأمر، فلن يمكن أن تحقق

مثل هذه الدعوة نجاحًا ذا بال أو أن تعمر طويلا إذا افتقدت قائدها أو تخلى عنها من يقوم عليها.

إن أهم ضمان للحركة الإصلاحية أن تقوم على مبدأ معنوى يرتضيه الناس كمثل على يستقر فى أعماق قلوبهم استقرار العقيدة، وفى حالتنا هذه يكون هذا المبدأ هو الإسلام، ولن يكفى هذا الشعور الكامن فى إنجاح الحركة الإسلامية، بل لا بد من ترجمة مبادئ الدعوة إلى حقائق مادية تعالج شئون الناس اليومية وتحل مشاكلهم، ترجمة منطقية يقبلها العقل عن طريق الاستقراء والاستنباط: استقراء واقع الحال المطرد، واستنباط النتائج المترتبة عليه.

إن المسلم المؤمن فى الحركة الواعية يعتقد أن حياته موقوفة على تحقيق إسلامه، ودليل إيمانه استعداده الكامل ببذل أغلى وأعز ما يملك من نفس ومال للوصول إلى غايته، ثم هو فى نفس الوقت من الوعى بحيث يكمل إيمانه يعضده ويسنده بتصور عملى واقعى لما يريد أن يحققه.

كلما ازداد إيمان الفرد كلما أصبحت العقيدة التى يؤمن بها هى الغاية التى يحيا الفرد من أجلها، وهى التى تحفزه إلى كل عمل وقول وجهد وجهاد. فليس الإيمان وحده سوى الشعور الباطنى المستقر فى ضمير الإنسان، فإن لم يترجم إلى عمل من خلال العقل الذى يدير العمل وينظمه، فإن الإيمان يبقى مجرد شعور مبهم يكاد يستحيل التعبير عنه، ويظل حبيسًا فى حنايا الصدر لا متنفس له، عاجزًا لا قدرة له على النماء والبقاء، ومن هنا قيل «الإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل».

• نظرة مستقبلية

ليس للباحث المنصف إلا أن يتفاءل خيرًا بالنسبة للحركات الإسلامية فى مستقبلها، أما الشواهد على هذا فهو ما يلى:

١ ـ تتجه الشعوب الإسلامية فى أقطار الأرض جميعًا نحو «الإسلام» مؤمنة بأن فيه صلاحها ونجاتها مما ترزح تحته من جهل وفقر ومرض وفوضى فى المجتمع وظلم فى الحكم.

الإسلام هنا قوة «محركة» دافعة، ولكن اتجاه الحركة لم يتضح بعد إلا فى أحوال قليلة جدًا، ثم إن كل الحركات الإسلامية تجد «مقاومة» تتفاوت فى شدتها من المحتمل إلى الاضطهاد المستعر المدمر، يقاومها غير المسلمين من النصارى واليهود، والهندوكيين، والبوذيين، والصابئين، والملحدين.. إلخ، ويقاومها مسلمون يخافون حكم الإسلام، ويؤثرون الدنيا على الآخرة، ويضحون بكل القيم المعنوية فى سبيل استمتاعهم بالسلطان والمال والجاه العريض ولذائذ الشهوات الحسية.

على أنه بالرغم من هذه المقاومات فإن الحركات الإسلامية فى ازدياد وتكاثر، وقد آمنت أن المثل العليا الغربية وما يستمد منها من نظم حياتية سياسية واجتماعية واقتصادية لن تصل بها إلى ما تنشده من أمن ورخاء، إذ قد جربت الشعوب مختلف نظم الحكم من ديمقراطية إلى الاشتراكية إلى ديكتاتورية فما أفاءت عليها إلا الشقاء.

٢ ـ لا شبهة فى أن بعض الحركات الإسلامية الواعية قد انتكست فى السنين القليلة الماضية نتيجة الظروف السياسية القاسية التى تضطهدها وتحاربها، ونتيجة عدم استطاعتها اختيار قادة صالحين لها، ثم لعجزها عن إيجاد الحلول لمشاكل شعوبها، ولكنه من الحق أيضًا أن حركات أخرى واعية استطاعت أن تثبت وجودها وتشق طريقها وأن تثبت للناس سلامة فكرتها.

وعندنا أنه ما إن تتحسن الظروف السياسية فى بعض البلاد الإسلامية الكبيرة كمصر، وسوريا، والملايو، وإندونسيا حتى تينع الحركات الإسلامية فيها وتؤتى ثمارها.

ولا شك فى أن تجارب الحركة الإسلامية السودانية وما تمر فيه من أحداث وما تحققه من تطوير سيكون ذا فائدة محققة للحركات الإسلامية الأخرى فى مستقبل جهادها، كما أن ما تمر به الحركة الإسلامية فى تونس وما توصلت إليه من رؤى واضحة لما يمكن أن تكون عليه الدولة الإسلامية فى العصر الحاضر وما يقتضيه الأمر من تطور حكيم، هذه التجارب السودانية والأفكار التونسية ستكون ذخرًا للحركات الإسلامية فى البلاد الأخرى وقدوة صالحة يقتدى بها.

٣ ـ لا معدى من عدول الحركات الإسلامية ـ خصوصًا الواعية منها والثائرة ـ من أن تعيد النظر فى وسائلها التى تستخدمها حاليًا للوصول إلى أهدافها، ولا بد لها أن تصطدم بفكر الشباب المثقفين والناضجين من المسلمين المخلصين، فتقف لتتدبر مليّا ما رسمته من مسيرة لحركاتها. لا بد لها أن تحدد الأهداف القريبة وتعرف الأهم لتقدمه على المهم، ولا بد لها من تفصيل المجمل وتوضيح الغامض، فليس من المعقول أو المقبول أن يظل القوم ينادون بوجوب إيجاد الدولة الإسلامية ووجوب إقامة النظم الحياة على أسس مستمدة من شرعة الإسلام، ثم لا يعلنون على الملأ القواعد الأساسية لهذه النظم، وكيف ستكون هياكلها ووسائل تطبيقها، وكيف أنها تفضل الوضع الحاضر، وكيف ستحقق للناس ما يرتجون من أكبر قسط من الحرية والكرامة والأمان والرفاهية.

إن الحركات الإسلامية ستظل قائمة ما جاش الإسلام فى قلوب الناس، وقد تتغير أسماؤها ويتجدد رجالها، ولكنها ستظل موجودة أبدًا، وستدب فيها الحياة بالسرعة والقوة التى يمكن لها أن تتطور لتبنى عن علم، ولتعمل عن فهم، ولا أحسب ما ينزل بهذه الحركات من نوائب وفتن إلا مثبتًا للعاملين المؤمنين ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣ - ١٧٤] صدق الله العظيم.

* * *